



تبروز ١٩٣١

اسرة القديس يوحنا الدمشقي

بقلم الاب لامنس اليسوعي

في ١٨ و ١٩ نيسان النابت احتفل احتفالاً باهراً بتدشين
 ميبد جديد على اسر القديس يوحنا الدمشقي ، اقامه الآباء
 اليسوعيون في المحل الذي كان يسكنه القديس في دمشق .
 فرأينا ان نورد شيئاً عن اسرة ذلك القديس العظيم الذي يسمه
 بحق عنوان فخر ومجد في الكنيسة الشرقية .

في الايام الاولى من شهر اذار سنة ٦٣٥ ، وصل العرب بقيادة خالد
 ابن الوليد الى ابواب دمشق ، فبدأوا حصارها . وضيّقوا عليها
 مدة ستة اشهر ، حتى ايلول من السنة نفسها . وكانت الحامية
 البيزنطية من جنود الامبراطور هرقل قد تركت المدينة هاربة في شهر آب . فلم
 يبقَ للدمشقيين الا العمل على مصالحة المحاصرين .

فاوفد المسيحيون للمخابرة بالصلح اسقف دمشق ، يماونه رجل اسمه

منصور بن سرجون كان ، دون شك ، اوجه سكان المدينة^(١) ، وكان صلفاؤه يتاقبون ، منذ امد مديد ، في مناصب الادارة لاسيا المالية منها . وكان منصور نفسه يدير الشؤون المالية في دمشق منذ اواخر سني الامبراطور موزيس (٥٨٤-٦٠٢) . وقد زعم فون كير انه من اصل يوناني ، ولكنه لم يدعم زعمه بالبراهين ؛ ومن الظاهر ان اسمه لا يؤيد هذا الزعم ، فهو عربي النصف ، سرياني النصف الآخر . اما ما يمكننا تأكيده فهو ان منصور بن سرجون كان من اقدم أسر دمشق ، وانه كان يستحق لقب « المسيحي كل المسيحي » الذي ينسبه به المؤرخ اليوناني تيوفانوس . ولم يكن منصور هذا الا جد اللاهوتي الشهير القديس يوحنا الدمشقي^(٢) .

وقد آيد منصور وطنيته بذهابه ، مع الاستق ، لمخبرة العرب المهاجرين على المدينة ، والتداول معهم بشأن الصلح . ساعده في ذلك اطلاءه الواسع على لغة العرب وعاداتهم ، ومصرفته حالة مدينته وسكانها معرفة لم يكن ليجاريه فيها احد ؛ فكان افضل من يوفد لمثل تلك المهمة الدقيقة . واذ بدأت المناقشات في شروط التسليم ، اظهر منصور كل مقدرته واستمان بجميع مواهبه ليخفف عن عاتق وطنيه مبلغ الترامات المالية . وقد نجح في ذلك كل النجاح .

ولا شك انه ، في تلك المناسبة ، قابل ، للمرة الاولى ، يزيد اخا معاوية الخليفة المقبل ، الذي كان من مشاهير قواد العرب اذ ذاك . فاثرت في يزيد كل التأثير مهارة منصور وبلاغته ، وخصوصاً تضلمه من الشؤون المالية . فلم يعين والياً على منطقة دمشق حتى سلمه ادارة الاموال . على ان يزيد لم يهنأ طويلاً بولايته فات

(١) في ما خصّ مأخذ هذا المقال ، نجيل قراءتنا الكرام ان كتابنا في « معاوية » :
« Etudes sur le règne du calife omayyade Mo'awia I, Beyrouth, 1908 »

الصفحات ٢٥٦ ، ٢٨٤-٢٦٦

(٢) كان احد منازل قانغا في بتان القط . راجع ابن عساكر : تاريخ دمشق (مخطوطة المكتبة الظاهرية) ٢: ٢٨٠-٢٨١ - والمجلة الآسيوية 1896, 1^o Journal asiatique, partie p. 576.

بالطاعون بعد سنة ، وخلفه اخوه مطوية . فاقر منصوراً بمنصبه ، واستفاد من مهارته التي سرعان ما اعادت النظام في الشؤون المالية وقد كانت تضعضت طبعاً على اثر الفتح .

وعندها عين مطوية والياً على بلاد الشام بكاملها ، وسع صلاحية منصور حتى شملت جميع منطقتيه . ولما كان مطوية نفسه متحدرًا من امرة اشهرت بالتجارة والمعاملات التقية ، كان يدرك حتى الادراك اهمية الادارة المالية ويقدر نهارة ماله منصور وذكائه حتى قدرهما . وزاد في ذلك انه كان بحاجة دائمة مستمرة الى المال لتحقيق مشاريعه المظيمة التي بدأ بالتفكير بها منذ ذاك الحين . ولم يكن ليجد بين رجاله من العرب من يقدر على القيام مقام الدمشقي ، ولا مقام غيره من وطنيه . ولهذا ظل جميع اصحاب المناصب من المسيحيين في سراكزم ؛ وظلت اللغة اليونانية وحدها لغة دوائر ديوان الدولة . ولم يلبث مطوية ان عين منصوراً مديراً لديوان الجيادات وحساب الجيش . فكان كأنه عينه وزير المالية والحربية ، وهما الادارتان الوحيدتان اللتان اهتم بهما العرب . ولم يكن غير منصور ليفهم طريقة تنظيم تلك الدوائر المتشعبة ، فكان عليه ان يسهر على جباية الضرائب ، واعالة الجيوش ، وترتيب ذخايرها وعددها المختلفة ، وبناء السفن وتهيئة الاسطول ، عندما شاء مطوية مباشرة الحرب البحرية في الاسلام . وعندما يبيع لمطوية بالخلافة ، سنة ٦٦٠ ، غدا منصور ، وهو المطلع على جميع المفاوضات ، الواقف على اسرار الدولة ، الوزير الاول في السلطنة العربية . فاصح لا مبدع المالية السورية فحسب ، بل وزير مالية الخلافة باسرها يتم . بتسوين الجيوش البرية والبحرية .

وما زال في ذلك المنصب المهم حتى آخر حياته . وقد كان في زمن الشيخوخة ، اذ اولاه مطوية ثقته . ولكن ليس لدينا ما يدل على انه ادرك آخر خلافته التي طالت حتى سنة ٦٨٠ . وعند وفاة منصور خلفه ابنه لا في وظيفته فحسب ، بل في ثقة الخليفة ايضاً . وقد برهن مطوية عن هذه الثقة برهاناً جليلاً ، اذ سمر بدنو اجله ، في غياب ابنه يزيد عن الشام وكان قد سناه ولي عهده ، فشاء ان يعين مجلس وصاية يدير شؤون الدولة بعد وفاته حتى وصول

ابنه يزيد ، فألف المجلس وجعل فيه ، مع عضوين مسلمين ، وزيره الاول وخدامه الامين ابن منصور الدمشقي النصراني .

اما علاقة الخليفة يزيد بابن منصور فلم تكن جديدة ، لانهما كانا قد نشأا معاً وترتيا معاً . واذا كان يزيد لا يزال ولي عهد ، كثيراً ما كان يهرب من رسميات قصر الحضراء مبتعداً عن نظر ابيه القاسي ، فيلجأ الى منزل الدمشقي الكائن في بستان القطّ والذي كانت ساحته الواسعة تجاور السور جنب باب كيسان . فكان يلتقي هناك بصديقه الاخطل ، الشاعر الكبير ، فيلهوان مع ابن منصور ، ويشنفون الاذن بسماع الموسيقى الراقية ، وروثفون من اكواب الذهب خمر لبنان الذهبي . فلا عجب ان يكون يزيد ، وقد اصبح خليفة ، وضع كل ثقله بوزير اليوم وصديق الامس ، فادرك هذا نفوذاً كبيراً لم ينقطع الا بما قابها الخلافة من وفاة يزيد ، في تشرين الثاني سنة ٦٨٣ .

بعد وفاة يزيد ساد عصر القوضى . اذ يوبع بالخلافة لمعاوية الثاني ، وكان قليل الصحة مستديم العلة ، فعين ثلاثة يشرفون على الادارة ، ومن هؤلاء الثلاثة كان ابن منصور الدمشقي . ثم تنزل الخليفة عن العرش ، فبويع مروان الاول الذي ملك عشرة اشهر قضاها بالحروب قاماً الثورات ليستعيد الشام ومصر . ومن الواضح ان النفوذ الاكبر في تلك الحالة كان لرؤساء الجيش . على ان الدمشقي احتفظ بمركره وتأثيره ، لاننا نراه لا يزال في وزارة المالية حتى آخر خلافة عبد الملك بن مروان (تشرين الاول ٧٠٥) .

وكان قد اخذ بعض التغير يدخل عقلية الخلفاء ، منذئذ ، فالوا الى « تمريب » جميع اداراتهم ، وقوي تمصب القاتحين المنصري والديني حتى اصبح مما لا يطاق ان يحكم الدولة رجل مسيحي . فاخذوا بادخال اللغة العربية ديوان الحسابات ، حتى رقي الوليد العرش ، وهو من كبار المتطرفين بالوطنية ، فانتزع من ابن منصور الدمشقي ادارة المالية ووزارة الدولة ، وعين مكانه رجلاً عربياً من اتباعه ومريديه .

وكان يتزعزع اذ ذاك ، في بيت الدمشقي ، ولده يوحنا الذي كان له ان يخلد اسم اسرته ، وان يصح مظهر مجد وفخر للكنيسة الشرقية . على اننا لا

نصف تاريخ مولده ، كما اننا لا نعلم شيئاً يُذكر عن حوادث شبابه ، سوى انه أنشئ تنشئة ممتازة ، فتعلم على مشاهير علماء عصره ، واتقن منذ يتاعته جميع العلوم والفنون الدينية والمدنية حتى الموسيقى . وتضلّع من اللغات الثلاثة : الارامية ، التي كانت لغته الاصلية دون شك ، واليونانية ، والعربية . وان تأليفه تشهد له خير شهادة بتضلعه من العربية . اما تاريخ وفاته فلا يمكننا تحديده بتدقيق ، ونحن نعلم انه لم يمض حتى ما بعد السنة ٧٥٣ ، بل ترجّح انه توفي نحو السنة ٧٤٨ ٧٤٩ .

تبع يوحنا في اول عهده مهنة اصلافة في ادارة الشؤون المالية ، مستفيداً من اختبارات ابيه ونصائحه ، فحذا حذوه في ذاك المنصب حتى خلافة هشام (٧٢٤-٧٤٣) ، فاستمضى ، واعتزل الاعمال . وما هي مدة قصيرة حتى ودّع العلم وانصرف الى الروحيات ، مختلياً في دير القديس سابا نواحي في القدس . وهناك اخذ باتمام تلك المؤلفات النفيسة التي جعلت من القديس يوحنا الدمشقي اعز كتاب الشرق ، على تنوع مؤلفاته من فلسفة الى لاهوت ، الى شعر ، الى خطابة ، الى تاريخ .

وبعد وفاته ، لا نعرف احداً اشتهر من تلك الاسرة الشريفة التي اخرجت ، مدة ثلاثة ارباع القرن ، افضل الوزراء للدولة العربية .

